الدرس العشرون

تفسير سورة نوح [١ :١٢]

{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) }

سورة (نوح) عليه السلام، سورةٌ أفردها الله تعالى من أولها إلى آخرها في ذكر قصته، ونوحٌ عليه السلام من أعظم أنبياء الله تعالى، وهو من أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم الله تعالى مجتمعين في موضعين من القرآن العظيم:

▪أحدهما: قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى:١٣]، في سورة ﴿حم (١) عسق﴾[الشورى:١-٢] الشورى.

▪الموضع الآخر: قول الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

[الأحزاب: ٧].

واحتفى القرآن العظيم بذكر نوحٍ عليه السلام حتى أنه ذكره ثلاثًا وأربعين مرة، في ثمانٍ وعشرين سورةً، وأفرد له سورةً كاملة هي هذه السورة التي تحمل اسمه.

ونوحٌ عليه السلام هو أول أنبياء الله كما أنه أول المرسلين، ويدل على هذه أولية النبوة قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[النساء:١٦٣]، فقوله: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، دليلٌ على أن جميع الأنبياء جاءوا بعده، وبهذا يتبين خطأ من ذكر أن إدريس أو شيث كان قبل نوح، ودل على ذلك أيضًا حديث الشفاعة الطويل في صحيح البخاري، وفيه أن الناس يقولون لنوح: (أنت أول نبيٍ أرسله الله إلى الناس)، وهو أيضًا أول المرسلين، فإنَّ في بعض روايات حديث الشفاعة الطويل (فإنك أنت أول رسولٍ أرسله الله إلى الناس)[1]، فتبين بهذا أن نوحًا عليه السلام هو أول الأنبياء وهو أول المرسلين.

ومن قال بخلاف ذلك كما هو موجودٌ في بعض المشجرات التي فيها ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيجعلون شيثًا وإدريس قبله، فإنَّ هذا خطأ مخالف للقرآن، وهو في سُلم التفاضل بين الأنبياء يقع في المرتبة الرابعة عند قول بعض المحققين، فأفضل الأنبياء على الإطلاق محمدٌ ﷺ، ثُمَّ يليه إبراهيم، ثُمَّ موسى بن عمران، ثُمَّ بعد ذلك نوح وعيسى في درجةٍ واحدة.

وهذه السورة لها مقاصد متعددة، يجمعها بيان حال نوح مع قومه وصبره، على دعوتهم وعقوبة المكذبين له.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾[نوح:١].

(1) سبق تخريجه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

التعبير بصيغة الجمع، ﴿ **إِنَّا** ﴾ للتعظيم، وقد كان قومه هم الناس جميعًا إذاك؛ لأنَّ البشرية لم تكن قد كَثُرَت وتشعبت وتفرقت؛ بل كانوا في موضعٍ واحد﴿ **أَنْ أَنذِرْ**﴾[نوح:١] أي: بأن أنذر، والنذارة هي الإخبار بالخبر المَخُوف، وهو ما سيأتي ذكره ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[نوح:١]، فالعذاب الأليم هو المؤلم الذي توعد الله تعالى به المكذبين للرسل، المنكرين للبعث الناكصين عن امتثال أمر الله وشرعه.

قال تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ**﴾[نوح:٢]: امتثل أمر الله ﷻ بالنذارة فقال، ﴿ **إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾[نوح:٢]، وهكذا ينبغي أن يتلبس النبي والداعي إلى الله تعالى بروح النذارة ، حتى أن نبينا ﷺ كان يقول: **(أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ)**[٢]؛ لأنَّ النذير العريان الذي ينذر قومه من خطرٍ أحدق بهم، يأتي ويَشقُّ ثوبه؛ ليظهر فداحة الأمر. وكان إذا خطب الناس أو وعظهم تظهر عليه آثار النذارة؛ كأنه منذر جيش، يقول: صبحكم ومسّاكم، ولهذا الفعل والقول تأثير بليغ في نفس المخاطب.

﴿**مُبِينٌ**﴾[نوح:٢]، أي: أفصح عن مرادي وأكشف عن دعوتي لا أتلجلج فيها ولا أغمغم؛ بل أسوقها لكم كما أراد الله تعالى الذي أرسلني، وهذا ملحظ مهم؛ وهو أنه يجب على من دعا إلى الله ﷻ أن يكون واضح البيان، وأن يعرَّف مخاطبه ماذا يريد منه وألا يأتي بعبارات فضفاضةٍ موهمة لا يُفهم المراد منها؛ بل ينبغي أن يكون كلامه فصلًا حزمًا عدلًا يفهمه كل أحد.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٢٨٣)، ومسلم رقم (٢٢٨٣)، متفق عليه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قال تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح:٣]: هذه المقاصد الثلاث هي التي جاء بها أنبياء الله ورسله أجمعون، وقد ذكرها نوح في غير هذا الموضع فقال في سورة الشعراء: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [الشعراء: ١٠٦ - ١١٠].

فالجامع الذي يجمع أنبياء الله في دعوتهم إلى الله هو الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، ففي سورة (الأعراف) ذكر الله تعالى نوحًا ثُمَّ ثنَّى بهود، ثُمَّ صالح، ثُمَّ ذكر بعد ذلك شعيبًا، وكلهم يقول:﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وذكر الله تعالى هذا عنهم في سورة (المؤمنون) وفي (الشعراء) وغيرهما، وقال مجملًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، فعلمنا بأن دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[نوح:٣]، يعني فلا تعبدوا أحدًا سواه؛ لأنَّ مقابل ذلك أمران: إمَّا ألا يُعبد الله، أو أن يعبد معه غيره، وكلاهما منافٍ للعبادة، فمن لم يعبد الله فهو الملحد، ومن عبد مع الله غيره فهو المشرك، لكن المطلوب ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، ولا تتحقق عبادة الله إلا بالبراءة من عبادة من سواه؛ ولهذا قال في الحديث القدسي، قال: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[٣].

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٥).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

﴿وَاتَّقُوهُ ﴾[نوح:٣]، الأمر بتقوى الله ﷻ من مقاصد الرسالات الإلهية، وهو أن يقوم في قلب المؤمن واعظ الله الذي يمنعه من الوقوع في محارمه ويحمله على امتثال أوامره، شعورٌ يصحبه في السر والعلن، في الخلوة والجلوة. فالتقوى هي سر بين العبد وبين ربه، وهي التي تتحقق بها الكرامة عند الله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣].

صور بعضهم التقوى تصويرًا بديعًا في أبياتٍ حسنةٍ جميلة، يقول ناظمها:

خلِّ الذنـوب صغيـرهـا ** وكبيــرهـا فهــو التقى

واصنـع كمــاشٍ فــوق ** أرض الشــوك يحـذر ما يرى

لا تحقــرن صغيــرةً ** إن الجبال مـن الحصــى.

وجاء ذلك في بعض الآثار قَالَ رَجُلٌ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: مَا التَّقْوَى؟ قَالَ: " أَخَذْتَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَكَيْفَ صَنَعْتَ؟ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ الشَّوْكَ عَدَلْتُ عَنْهُ أَوْ جَاوَزْتُهُ أَوْ قَصُرْتُ عَنْهُ قَالَ: ذَاكَ التَّقْوَى"(٤).

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾[نوح:٣].

لا يمكن أن تتحقق عبادة الله وتقواه إلا باتباع المرسلين وطاعتهم،

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء:٨٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[النساء:٥٩]، فلا إيمان لمن لا طاعة له، ولا تكون الطاعة إلا بالإتباع بأن يتبع الرسول ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

(٤) الزهد الكبير للبيهقي (٣٥٠/ ٩٦٣).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١]، فهذه المقاصد الثلاثة هي خلاصة الرسالات الإلهية ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح:٣].

ثُمَّ أردف ذلك بما يغري بقبولها ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[نوح:٤].

قيل: أن معنى ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم وأن (من) صلة، يعني أنها لو رُفعت لاستقام المعنى، لكن في إثباتها مزيد تأكيد، وقيل: إنها للتبعيض، يعني ما سلف منها، وأمَّا ما تستقبلون فإلى الله تعالى، فيحتمل الأمرين. وقد قال الله للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[الصف:١٠-١٢]، ولم يقل: (من ذنوبكم)، فدلَّ هذا على أن لوضعها في هذا السياق معنى، فلعلها أُريد بها التبعيض.

قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[نوح:٤].

هذا هو الإغراء الثاني، يعني يَمُدَّ في آجالكم إلى الأجل الذي قدره الله تعالى منذ الأزل وهذا الأجل لا يعلمه إلا الله، فالله تعالى علم بسابق علمه ما هم عاملون. لكن نوح لا يعلم ما قضى الله في الأزل وإنما علم من سنة الله في خلقه أنهم لو آمنوا لزيد في آجالهم وأُخِر عنهم ما يخشونه من عذاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[نوح:٤].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

فالأجل الذي يضربه الله تعالى لا بُدَّ واقعٌ لا محالة على مستوى الأفراد وعلى مستوى الجماعات،﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠]، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف:٣٤]، فذكرهم بهذا المعنى الجليل المهيب الرهيب. وبعد هذا البيان الجلي، والنصح الظاهر والخفي فزع إلى ربه وارتفع إليه يشكو إليه حاله كمن يُقدم تقريرًا ختاميًا نهائيًا إلى مرجعه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح:٥-١٤].

هذا النبي الكريم الذي أبلى بلاءً حسنًا لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم، وينوع في أساليب الدعوة سرًّا وجهارًا وليلًا ونهارًا، إعلانًا وإسرارًا، أفرادًا ومجتمعين، انتهز جميع الفرص، وأخذ بكل الممكن. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ لأنه ظن أو وقع في نفسه أن بعض الأوقات أحرى بالإجابة والإصغاء من أوقاتٍ أُخر، لكن ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي نفورًا وبعدًا وهربًا من قبول الحق، رغم اجتهادي ونصحي لهم.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا﴾ و(كلما)، تدل على التكرار، ﴿دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ كان يضمخ دعوته بالإغراء والتلطف، كأنما يقول: آمنوا يغفر لكم ما قد سلف.

﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ لكيلا يسمعوا الحق باعتبار مجموعهم، ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ التحفوا بها لكيلا يبصروا. وهذا شأن الكافر العنيد المستكبر ضيق العطن، يُصم أذنيه ويعمي عينيه، ويغلق جميع المنافذ التي توصل الحق إلى قلبه، ويا لها من حماقة وبجاحة، وإلا فماذا يضيره أن يُرخي سمعه ويطلق بصره، ويشرح صدره ويستمع؟! لكن شيطان الكبر والنفس الأمارة بالسوء التي استحكمت وتمكنت حملته على هذا الفعل الأحمق الأهوج.

﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أي أصروا على كفرهم واستكبروا، وذلك أن حقيقة الكبر بطر الحق وازدراء الخلق، وهذا اجتمع في قوم نوح، فأمَّا بطر الحق، فقد جحدوا الحق الذي جاءهم به نبيهم وجادلوا نوحًا عليه السلام جدالًا طويلًا، حتى أنهم قالوا له: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[هود:٣٢]، ما أحمقهم؟! ملوا، وانقطعت حججهم وفنيت أدلتهم، فما بقي إلا أن استعجلوا العذاب

وأما ازدراء الخلق فقد وقع منهم أيضًا، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود:٢٧]، فوصفوا أتباعه بأنهم أراذل وسقَطَة وسُوَقة وأنهم لا فضل لديهم، يعني لا مال لهم ولا جاه يفضلونهم به؛ ولهذا قال نوح في الرد عليهم:

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[هود:٣١]، فهم كانوا يزدرون.

﴿اسْتِكْبَارًا﴾، مفعولٌ مطلق يدل على تأكيد عامله، أي استكبارٌ من النوع البليغ.

قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، أي على رؤوس الملأ وبين ظهرانيهم؛ لعل الدعوة الجماعية والعامة تؤثر فيهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾.

أي: كلمتهم مجتمعين وفرادى وهذا من التنويع في الدعوة الذي سلكه عليه الصلاة والسلام، كما قال الله لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[سبأ:٤٦]، فتارةً يكون الخطاب الفردي مؤثرًا؛ لأنَّ المخاطب يسلم من تأثير الجماعة، وتارةً يكون خطابهم جملةً أبلغ في قيام الحجة والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام توسل بجميع الوسائل، وتذرع بجميع الذرائع التي يرجو من خلالها قبول دعوته.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾، يلاحظ القارئ تكرار الحديث عن المغفرة؛ لأنَّ القوم قد أجرموا ووصفهم الله بألقاب سوء (عمين) (فاسقين) و(أَظْلَمَ وَأَطْغَى)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[الأعراف:٦٤]، {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الفاتحة: ٤٦]، {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء: ٧٧]، {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

[النجم: ٥٢] فجميع صفات السوء مجتمعة فيهم، فلأجل هذا كان يعرض عليهم التوبة والمغفرة عما قد سلف.

والاستغفار: هو طلب المغفرة، والغفر: هو الستر والتجاوز، ومنه سُمي المغفر الذي يكون على الرأس، الذي يسمى الخوذة لأنه يستر الرأس ويقيه، فالمغفرة تدل على الستر والتجاوز،﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، من أسمائه الحسنى الغفار، يعني كثير الغفر، فهو غفور وهو سبحانه غفار، وهو سبحانه غافر، كلها أسماءٌ لله.

وقد كان نبيناﷺ يستغفر الله في اليوم والليلة ، في المجلس أكثر من مائة مرة، وقال: (وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)(٥)، وعدَّ له أصحابه أكثر من مائة مرة، فما أحوجنا نحن إلى هذا لجميل آثاره الدنيوية والأخروية.

ثم عدد لهم الثمرات الدانية العاجلة والثمرات الآجلة للاستغفار، فقال، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ بأن تَصُبّ السماء عليكم المطر صبًّا، كما الضرع يَدُر ، ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: يُكثِّر اموالكم نسلكم، ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين محدقة بكم، ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ أي: تجري من تحت أقدامكم وهذا كله في الدنيا، ولا ريب أن هذا الإغراء حقيقي فهذه سُنَّة الله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦]، فمن عاجل ثواب الله للمؤمنين أن يوسع عليهم في

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٣٠٧).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أرزاقهم، ويبارك لهم فيما يعطيهم، فإن هم انتكسوا ونكصوا عن أمر الله تعالى عوقبوا بالقحط والجدب والآفات المختلفة، كما وقع للأقوام السابقين.

ودلت هذه الآية على أنه لا حرج أن يستغفر العبد ربه بنيةٍ تحصيل أمر من أمور الدنيا، فإنّ من الناس من ظن أن من استغفر الله بنية حصول الولد، أو بنية قضاء الدين، أو بنية حصول الكسب أن هذا منافٍ للإخلاص، وأنه نوعٌ من الشرك! كلا؛ هذا غلط؛ لأنَّ المستغفر يتقرب إلى الله ويرجو ثوابه، فلا حرج في ذلك البتة. وهذه الآية أكبر دليل على ذلك. فلا حرج ان يقصد الإنسان بذكره ودعائه وعبادته أن ينال شيئًا من فضل الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة.

فقد أغراهم نوح بذلك، بمعنى أنهم لو فعلوا هذا بهذه النية، فلا تثريب، عليهم ولا حرج.

ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[الصف:١٣]؟ وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾[الفتح:٢٠]، وقال النبي ﷺ: (مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ)(٦)، فإذا صحت النية الأولى لم يضر بعد ذلك ما يحصل للإنسان من ثوابٍ عاجل، ولا يقدح ذلك في نيته الأولى.

ولا غضاضة أن يستغفر الإنسان أو أن يعمل عملًا صالحًا لينال أمرًا من أمور الدنيا، وأن هذا ليس من الشرك في شيء كما يتوهم بعض الناس؛ بل إن

(٦) أخرجه البخاري رقم (٤٣٢١)، ومسلم رقم (١٧٥١)، متفق عليه.

الثلاثة الذي أطبق عليهم الغار توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم، توسل أحدهم بالبر بوالديه، والثاني بالعفة، والثالث بالأمانة.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله